بسم الله الرحمن الرحيم

٢٧

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾

(ق: ١٠)

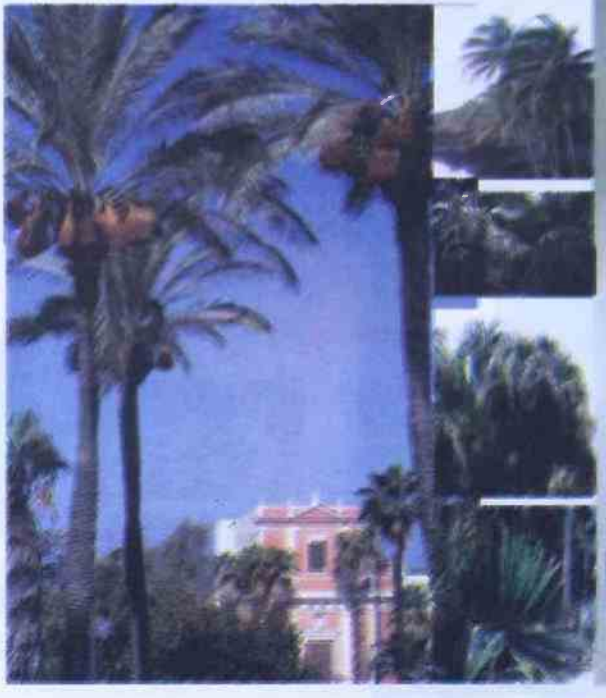

هذه الآية الكريمة جاءت فى الربع الأول من سورة (ق)، وهى سورة مكية، وعدد آياتها خمس وأربعون بعد البسملة، ويدور المحور الرئيسى لها حول قضيتى الوحى الخاتم، والبعث القادم، وإنكار كل من الكفار والمشركين لهما فى زمن الوحى، وإلى وقتنا الراهن، وحتى قيام الساعة. ولذلك تستهل السورة بقسم من الله ـ تعالى ـ بالقرآن المجيد ثم بالعديد من الآيات الكونية الظاهرة والدالة على طلاقة القدرة الإلهية المبهرة فى خلق الكون بجميع ما فيه ومن فيه، والدالة كذلك على أن الخالق المبدع قادر على إفناء الخلق، وعلى إعادة بعثه من جديد، وكانت قضية البعث منذ الأزل هى حجة الكفار والمشركين والضالين المتشككين، انطلاقًا من فساد عقائدهم. . . !! والله غنى عن القسم لعباده، ولكن إذا جاءت الآية القرآنية الكريمة بصيغة القسم فهذا من قبيل تنبيهنا إلى أهمية الأمر المقسم به.

وتتحدث سورة (ق) بعد ذلك عن حركة الحياة والموت، وتحلل الأجساد وبلاها، ثم بعثها، وحشرها، وحسابها، وجزائها، كما تتحدث عن إرهاصات الساعة، وعن رقابة الله ـ تعالى ـ على كل نفس، وهى رقابة لاتغفل، ولا تغيب أبدًا. . . !!

وتتعرض هذه السورة المباركة أيضًا لموقف من مواقف الكفار والمشركين والظلمة المتجبرين على الخلق فى يوم القيامة، ومحاولاتهم التنصل من جرائمهم بإلقاء التبعة فى ذلك على قرنائهم من شياطين الإنس والجن، ورد قرنائهم على ادعاءاتهم، وبيان أن خاتمة هذا الجدل هى إلقاؤهم جميعًا فى نار جهنم، فى الوقت الذى يكرم الله ـ سبحانه وتعالى ـ الصالحين من عباده بإدخالهم فى جنات النعيم.

وتوصى سورة (ق) خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ومن تبعه من المؤمنين بالصبر على أذى كل من الكفار والمشركين والضالين التائهين من أصحاب العقائد

الفاسدة، والديانات المحرفة، الذين لم يعتبروا بمصائر المكذبين من الأمم السابقة عليهم، وما أصاب تلك الأمم من دمار بسبب كفرهم بالله ـ تعالى ـ أو شركهم به وتكذيبهم لأنبيائه ورسله.

وتوصى هذه السورة المباركة كذلك بالثبات على عبادة الله الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وحده ـ بغير شريك، ولاشبيه، ولامنازع، ولاصاحبة، ولا ولد؛ لأن ذلك كله من صفات المخلوقين، والله ـ تعالى ـ منزه عن جميع صفات خلقه.

وتؤكد سورة (ق) أن دور الرسول الخاتم ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ هو التذكير بأوامر الله ونواهيه دون جبر، أو إكراه، أو تعنت؛ لأن أصلا من أصول الإسلام العظيم أنه «لا إكراه فى الدين».

عرض موجز لسورة «ق»

تبدأ هذه السورة المباركة بحرف من الحروف الهجائية المقطعة وهو الحرف (ق)، وهى المرة الوحيدة التى استهلت فيها إحدى سور القرآن الكريم بهذا الحرف. ثم أتبع هذا الحرف بقسم من الله ـ تعالى ـ يقول فيه: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]. أى الكريم على الله ـ تعالى ـ تعظيمًا لشأنه، وذلك لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ غنى عن القسم لعباده، وحذف جواب القسم الذى مضمونه: أقسم بالقرآن المجيد الذى أنزلناه إليك يامحمد لتنذر به الناس كافة، أنه الحق المطلق من الله الخالق، ودلالة ذلك الآية الثانية التى جاءت بعد القسم، والتى يقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى:

﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢].

والآية تشير إلى تعجب كفار قريش ومشركيهم من اختيار الله ـ تعالى ـ لخاتم أنبيائه ورسله ﷺ من بينهم، ثم تتبع باستبعادهم لعملية البعث بعد الموت، وبعد أن تبلى الأجساد وتتحلل إلى التراب، وفى ذلك يقولون: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣].

ويرد عليهم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بقوله العزيز:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٤].

أى قد علمنا ما تأكل الأرض من أجسادهم بعد الموت، وعلمنا محيط بكل شىء، وقد دونا ذلك فى كتاب حفيظ، وهو اللوح المحفوظ، وهذا تأكيد لقول المصطفى ﷺ: «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب»(١).

وتؤكد الآية الخامسة من سورة (ق) أن نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ الثابتة بالعديد من المعجزات الظاهرة، وفى مقدمتها القرآن الكريم، هى حق، وأن تكذيب الكفار والمشركين لها يعتبر فى ميزان الله أكبر جرمًا من تكذيبهم بالبعث، فقد اختلطت أمورهم وأفكارهم، وفسدت معتقداتهم، وأصبحوا فى حالة من القلق والاضطراب والضياع لاتمكنهم من حسن التفكير أو حسن النظر فى الأمور بعين البصيرة، وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ عنهم:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥].

ثم استعرضت الآيات عددًا من الشواهد الكونية الدالة على كمال القدرة الإلهية المبدعة فى الخلق، وعلى إحاطة علم الله الخالق بكل صغيرة وكبيرة فى الكون، وعلى عظيم حكمته الظاهرة فى كل أمر من أمور المخلوقات فيه، والاستدلال من ذلك كله بأن الذى أبدع هذا الكون على غير مثال سابق، قادر على إفنائه وعلى إعادة خلقه من جديد مما يؤكد حتمية البعث وضرورته.

وعرضت الآيات من بعد ذلك إلى ذكر عدد من الأمم السابقة التى كفرت بربها، أو أشركت به، وعصت أوامره، وكذبت أنبياءه ورسله، فحق عليها عذاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الدنيا قبل الآخرة، وتحقق فيهم وعد الله ووعيده. وكان فى هذا العرض ما فيه من المواساة الإلهية لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ـ وللمؤمنين به من بعده ـ فى تكذيب الكفار والمشركين لبعثته الشريفة، وللبعث، ويرد الحق ـ تبارك وتعالى ـ على منكرى البعث مرة أخرى بقوله ـ عز من قائل ـ:

(١) صحيح البخارى (٤٨١٤)، ومسلم (١٤٢/ ٢٩٥٥).

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق: ١٥].

ثم تستمر الآيات فى تأكيد حقيقة أن الله ـ تعالى ـ خلق الإنسان، ويعلم ما توسوس به نفسه؛ لأن هذا الإله الخالق ـ بإحاطة علمه ودوام مراقبته ـ هو أقرب إلى كل عبد من عباده من أقرب شىء إليه وهو عرق الوريد بباطن عنقه، وفوق ذلك فإن الله ـ تعالى ـ قد أوكل كل فرد من عباده إلى ملكين: أحدهما عن يمينه لكتابة الحسنات، والآخر عن شماله لكتابة السيئات، فما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد من قبل هذين الملكين المتلقيين عنه، وكل منهما ملازمه، لا يفارقه أبدًا، إلا عند إحدى حالات ثلاث: الغائط، والجنابة، والغسل، كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ الذى أخرجه الحافظ البزار عن أنس بن مالك مرفوعًا. وكلّ من الملكين الحافظين مهيأ لتلك المهمة، ومعد إعدادًا تامًا لها.

وبعد التأكيد على هذه الحقيقة التى يغفل عنها كثير من الخلق، تنبه الآيات الإنسان إلى حقيقة الموت، وسكراته، وشدائده، وكربه، ونزوله بالحق أى باليقين الذى كان يمارى فيه كل كافر ومشرك ومتشكك، أو بالحق حيث يرى الميت وقت حشرجة الروح مكانه فى الجنة أو مكانه فى النار، والرسول ﷺ يقول: «**الناس نيام ما عاشوا فإذا ما ماتوا انتبهوا**»(١). والموت حق على كل حى من خلق الله، وإن كان فى طبيعة الإنسان أن يستبعده عن نفسه وهو يراه واقعًا على غيره فى كل يوم، ويحاول الهروب منه، والفرار من هجمته، ولكن هيهات هيهات، فلا ملجأ من الله إلا إليه...!!

ثم تنبه الآيات بعد ذلك إلى نفخة الصور بأمر الله ـ تعالى ـ فيبعث جميع من فى القبور، وهو اليوم الذى توعد الله به كل كافر، ومشرك، وظالم. وتشير الآيات إلى مجىء كل نفس معها من يسوقها من الملائكة إلى أرض المحشر، ومن يشهد عليها بعملها. وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾

(١) العجلونى فى «كشف الخفاء» (٢/ ٤٣٢)، والسلسلة الضعيفة (١٠٢).

إذْ يتلقى الْمُتلقيان عن الْيمين وعن الشمال قعيدٌ (١٧) ما يلفظُ من قولٍ إلاَّ لديْه رقيبٌ عتيدٌ (١٨) وجاءتْ سكْرةُ الْموْت بالْحق ذلك ما كنت منْه تحيدُ (١٩) ونُفخ في الصُّور ذلك يوْمُ الْوعيد (٢٠) وجاءتْ كُلُّ نفْسٍ معها سائقٌ وشهيدٌ (٢١) لقدْ كُنت في غفْلة منْ هذا فكشفْنا عنك غطاءك فبصرُك الْيوم حديدٌ﴾ [ق: ١٦ ، ٢٢].

أى: فأزلنا عنك غفلتك أيها الإنسان الغافل، وجلونا لك بصرك حتى ترى به الحق الذى كنت تكذب به فى الدنيا، وقد كنت فيها كافرًا، أو مشركًا، أو متشككًا، أو ظالمًا جائرًا لاتخشى حساب الله فى الآخرة.

وفى التحذير من جريمة الشرك بالله ـ سبحانه وتعالى ـ تذكر الآيات أن شيطان كل من المشرك والكافر الذى أغواه وأضله، أوالملك الموكل بكتابة سيئاته يقول عنه:

﴿وقال قرينُهُ هذا ما لديَّ عتيدٌ (٢٣) ألْقيا في جهنَّم كُلَّ كفَّارٍ عنيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ للْخيْر مُعْتدٍ مُريبٍ (٢٥) الَّذي جعل مع اللَّه إلهًا آخر فألْقياهُ في الْعذاب الشَّديد﴾ [ق: ٢٣ ، ٢٦].

وحينئذ يبدأ كل كافر ومشرك وظالم فى الاعتذار إلى الله ـ تعالى ـ بأن شيطانه قد أغواه وأطغاه، فيقول شيطانه معتذرًا أيضًا إلى الله: ﴿قال قرينُهُ ربَّنا ما أطْغيْتُهُ ولَكن كان في ضلالٍ بعيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

فيرد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بقوله الحق:

﴿قال لا تخْتصمُوا لديَّ وقدْ قدَّمْتُ إليْكُم بالْوعيد (٢٨) ما يُبدَّلُ الْقولُ لديَّ وما أنا بظلاَّمٍ للْعبيد (٢٩) يوْم نقُولُ لجهنَّم هلِ امْتلأْت وتقُولُ هلْ من مَّزيدٍ (٣٠) وأُزْلفت الْجنَّةُ للْمُتَّقين غيْر بعيدٍ (٣١) هذا ما تُوعدُون لكُلِّ أوَّابٍ حفيظٍ (٣٢) مَّنْ خشي الرَّحْمن بالْغيْب وجاء بقلْبٍ مُّنيبٍ (٣٣) ادْخُلُوها بسلامٍ ذلك يوْمُ الْخُلُود (٣٤) لهُم مَّا يشاءُون فيها ولَدينا مزيدٌ﴾ [ق: ٢٨ ، ٣٥].

وبعد هذا الاستعراض القرآنى المعجز لبعض حقائق الدنيا والآخرة ووضع الإنسان فيهما، تعاود الآيات فى ختام السورة بالإشارة إلى عقاب العاصين من الأمم السابقة الذين أهلكهم الله ـ تعالى ـ بذنوبهم، وقد كانوا أشد بطشًا من كفار قريش، والعذاب ينزل بهم، وهم فى حالة من الهلع والفزع، يركضون فى جنبات الأرض

ونقوبها فى محاولة يائسة للهروب من عذاب الله، وهو واقع بهم لا محالة حتى أبادهم عن بكرة أبيهم، وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص (٣٦) إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ [ق : ٣٦ ، ٣٧].

وترجع الآيات مرة أخرى بالإشارة إلى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام، (أى : فى ست مراحل متتالية) وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ [ق : ٣٨].

ثم يوجه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ الذى كان يؤلمه ما يتطاول به الكفار والمشركون على الذات الإلهية، وذلك بقول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ :

﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب (٣٩) ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴾ [ق : ٣٩، ٤٠].

أى : اصبر يا محمد على تطاول الكفار والمشركين على الذات الإلهية، وهو مما يؤلمك، واصبر على تكذيبهم لبعثتك الشريفة، وهو مما يحزنك، وقد جاء هذا المعنى أيضًا فى سورة الأنعام التى يقول فيها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ [الأنعام : ٣٣].

وتأمر الآيتان (٣٩، ٤٠) من سورة (ق) خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ أن ينزه ربه عن كل وصف لا يليق بجلاله، وأن يحمده حمداً يليق بجلاله، خاصة فى وقتى الفجر والعصر، ومن الليل، وعقب كل صلاة مفروضة، وذلك بالتسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل وبالإكثار من النوافل قدر الاستطاعة.

وتختتم هذه السورة المباركة بالإشارة مرة أخرى إلى يوم الصيحة بالحق، يوم الخروج، ﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعا﴾ [ق : ٤٤]، يوم البعث والحشر، مؤكدة يسر ذلك على الله، جازمة بأن الله ـ تعالى ـ هو الذى يحيى ويميت، وأن مصير الخلائق كلها إليه ـ سبحانه ـ وأنه يعلم السر والنجوى موجهة الخطاب فى ذلك إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وذلك بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿ واستمع يوم ينادِ المُنادِ من مكانٍ قريبٍ (٤١) يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخُروج (٤٢) إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير (٤٣) يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشرٌ علينا يسيرٌ (٤٤) نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ [ق: ٤١ ـ ٤٥].

ومن روعة بيان هذه السورة، وشدة وقعها على السمع، والعقل، والقلب، واحتفالها بعدد هائل من حقائق الوجود، كان خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ كثيراً ما يخطب بها في صلاة العيدين والجمعة، وكان يجعل منها موضوع خطبته في اجتماعاته الحافلة بالناس من المؤمنين والكافرين على حد سواء، يحرك بمعانيها الرائعة، وجرسها الفريد كثيراً من القلوب الغافلة، ويسمع بها كثيراً من الآذان الصم، وينير بها كثيراً من العقول المظلمة المعتمة، وذلك لأن الإنسان مهما أوتي من أسباب الفصاحة، والبلاغة، وروعة البيان لا يمكن له أن ينقل ما جاء بسورة (ق) من معان بأسلوب يقترب في شيء من روعة ما جاء فيها من بيان الله الذي لا يبارى، والذي لا يمكن لبيان البشر أن يدانيه من قريب أو من بعيد.

الإشارات الكونية في سورة (ق)

جاء في سورة (ق) عدد من الإشارات الكونية التي يمكن إيجازها فيما يلي:

(١) إن تحلل الجسد الميت ينتهي إلى تراب الأرض، فيما عدا فضلة واحدة، أو عظمة واحدة سماها المصطفى ﷺ «عجب الذنب» وأخبر أن الإنسان من «عجب الذنب» خلق، وفيه يعاد تركيبه يوم القيامة كما دلت عليه الآية الرابعة من سورة (ق)، وأكدته البحوث العلمية.

(٢) إن السماء الدنيا بناء محكم، مزدان بالنجوم. ولا وجود للفراغ الخالي من صور المادة والطاقة فيها ﴿ ...وما لها من فُروج ﴾.

(٣) إن الأرض كروية الشكل؛ لأنها ممدودة بلا نهاية، والمد بلا نهاية هو قمة التكور.

(٤) إن تكون الجبال عملية لاحقة لخلق الأرض، وهي رواسي مثبتة لها في دورانها وجريها، كما أنها مثبتة لأغلفتها الصخرية حتى لا تميد ولا تضطرب.

(٥) إن كل شيء في الوجود قد خلقه الله ـ تعالى ـ في زوجية واضحة حتى يبقى ربنا ـ تبارك وتعالى ـ متفرداً بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، والدراسات العلمية تؤكد الزوجية في جميع المخلوقات (من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان).

(٦) إن الله ـ تعالى ـ هو الذي يحكم دورة الماء حول الأرض بعلمه وقدرته وحكمته، وينزل من السماء ماء مباركًا يتميز بشدة طهارته، وبنزوله على الأرض يحيى الله ـ سبحانه ـ به مواتها وينبت فيها جنات وحب الحصيد. ويشبه الله ـ تعالى ـ إخراج الأموات من قبورهم في يوم البعث بإخراج النبات من الأرض بعد إنزال ماء المطر عليها، مما يؤكد حتمية البعث وضرورته.

(٧) وصف النخيل بوصف الباسقات، وأن طلعها نضيد.

(٨) إقرار حقيقة أن الإنسان مخلوق، خلقه الله ـ تعالى ـ وهو خالق كل شيء، وأن الموت حق على جميع المخلوقين، وأن الله ـ تعالى ـ هو الذي يحيي ويميت، وأن الخلق الأول يشهد لله الخالق بالقدرة على البعث.

(٩) إقرار حقيقة خلق السماوات والأرض عبر ست مراحل متتالية يحاول العلم الكسبي استقراءها اليوم.

(١٠) وصف انفتاح الأرض لإخراج المدفون فيها من أجداث يوم البعث بالتشقق، وهي عملية مختلفة تمامًا عن عملية التصدع، التي أشار إليها القرآن الكريم في مقام آخر، وفي ذلك من الدقة العلمية ما فيه.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معاملة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة السابعة في القائمة السابقة والتي تتحدث عن النخل الباسقات وعن طلعها النضيد.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

في تفسير قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ١٠].

* ذكر الطبرى ـ رحمه الله ـ ما مختصره: ﴿النَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾: طوالا، والباسق هو الطويل، ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾: متراكب بعضه على بعض.

وجاء فى بقية التفاسير كلام مشابه لا أرى حاجة إلى تكراره هنا.

وقد أشارت هذه الآية الكريمة إلى النخل الباسقات، وهو نوع خاص من النخل يتميز بطول ساقه (جذعه) حتى ليتجاوز الثلاثين مترًا فى الارتفاع، علما بأن هناك من أنواع النخل القصير ما لا يتجاوز ارتفاع جذعه المترين، وبذلك تتضح الحكمة من الإشارة إلى النخل الطوال فى هذه الآية الكريمة، ومن إتباع الوصف باسقات بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾.

وفى ذلك إشارة إلى القدرة الإلهية المبدعة التى تتجلى فى خلق النخلة الباسقة، بهذا الطول الفاره، وإعطائها من القدرات البينة الظاهرة، والخفية المستترة، ما جعل من النخل مضرب المثل فى القرآن الكريم الذى ذكره فى عشرين موضعًا، وفضله على غيره من أنواع الزروع، والفاكهة، وجعله فى مقابلة غيره من أنواع النباتات.

فمن القدرات الظاهرة للنخل ثباته فى الأرض، وارتفاعه فوق سطحها، ومقاومته للرياح، وتحمله لكل من الحرارة الشديدة والجفاف، وقوته، وتعميره، ووفرة إنتاجيته تحت أقسى الظروف، وتعدد أشجاره وثماره شكلاً ولونًا، وطعمًا وحجمًا ونفعًا، وتعدد الفوائد المرجوة من كل جزء من أجزاء شجرته المباركة.

ومن القدرات المستترة للنخلة تلك القوى الفائقة التى وهبها الله إياها، لتعينها على القيام بكافة وظائفها الحياتية، وفى مقدمتها القدرة على الاستفادة بماء الأرض وعناصرها ومركباتها المختلفة، والاختيار منها حسب حاجاتها، ورفع العصارة الغذائية إلى قمتها، وإلى كل من أوراقها وأزهارها وثمارها، وإلى مختلف أجزائها مهما تسامقت تلك القمة، وتباعدت تلك الأوراق والأزهار والثمار عن مستوى سطح الأرض.

والعائلة النخيلية تضم حوالى المائتى جنس، وأكثر من أربعة آلاف نوع من

الأشجار، والشجيرات، والمتسلقات التى تنتشر أساسًا فى كل من المناطق الاستوائية والمعتدلة، كما يكثر بعض أنواعها كنخيل البلح فى البيئات الصحراوية القاحلة، حيث تصل درجة حرارة الجو صيفًا إلى ما فوق الخمسين درجة مئوية، ودرجة حرارة سطح الأرض إلى تسعين درجة مئوية، وتندر الأمطار، ومن هنا كانت أهمية التهيئة الربانية للنخيل ـ خاصة نخيل البلح ـ ليحيا بأقل كمية من الماء.

أهمية الماء فى حياة النخيل

من المسلمات أن الماء سائل أساسى للحياة، ولذلك يوجد بكميات قد تصل إلى أكثر من ٩٥٪ من وزن بعض الكائنات الحيّة ـ نباتية كانت أو حيوانية ـ وذلك لأن للماء من الصفات الطبيعية والكيميائية ما وهبه بها الله ـ تعالى ـ قدرات فائقة على إذابة العديد من الجوامد، والغازات، وعلى الاختلاط والامتزاج بالعديد من غيره من السوائل، ولذلك أصبح الماء وسطًا لازمًا لإتمام جميع العمليات الحيوية، ولتلطيف درجة حرارة الأجساد الحيّة بتبخره منها.

والنباتات بصفة عامة ـ والنباتات الراقية بصفة خاصة، والصحراوية منها بصفة أخص ـ تحتاج إلى قدر هائل من الماء الذى تحصل عليه من الوسط الذى تحيا فيه، بواسطة الجذور. والماء يوجد فى التربة على هيئة خيوط شعرية دقيقة تنتشر فى المسافات البينية الموجودة بين حبيبات التربة، أو على هيئة ملتصقة بتلك الحبيبات خاصة ما لها شراهة للماء منها، مثل حبيبات الصلصال وفتات المواد العضوية.

ويصل الماء إلى التربة بعد سقوط الأمطار، أو بواسطة الرى، أو من المخزون المائى تحت سطح الأرض، ونظرًا لندرة الأمطار فى المناطق الصحراوية الحالية، فقد زودها الله ـ تعالى ـ بمخزون مائى من أمطار غزيرة هطلت عليها قبل تعرضها لعملية التصحر. ولذلك وهب الله ـ تعالى ـ للنخيل القدرة على الوصول بجذوره العرضية إلى أى قدر من الرطوبة الموجودة فى الأرض، وحمى جذوعه بأغطية من أعناق السعف (تعرف الواحدة منها باسم الكربة)، وحماها كذلك بما جعل للسعف عند اتصاله بجذع النخلة من أغماد ليفية خشنة تزيد من متانة الجذع، وتحفظ الماء فى

خلاياه من البخر، كما تحفظ الجذع ذاته من التغيرات المناخية ومن عوامل التعرية ومن التعديات الحيوانية.

كذلك جعل الله ـ تعالى ـ وريقات النخل (السعف) من الخوص الجلدى المانع لتسرب الماء، وجعلها على هيئة رمحية مدببة الأطراف ومطوية بصورة مائلة على محورها، وحور بعض الوريقات على هيئة أشواك لتقليل تسرب الماء منها بعملية النتح. كذلك حمى الله ـ سبحانه وتعالى ـ زهور النخلة بغلاف جلدى متين، غير منفذ للماء، مستدق الحواف يحيط بها إحاطة كاملة، ويغطى من الخارج بخملة حمراء اللون تساعد على حفظ الماء الموجود فى كل من الزهور والشماريخ، وهى فروع متحورة، لحمية، غليظة، تحمل الزهور على هيئة نورة مركبة أو سنبلة، وتعرف الشماريخ وماعليها من زهور باسم الأغاريض (جمع إغريض).

وينتقل الماء من التربة إلى خلايا المجموع الجذرى للنخلة المنغرسة فى تلك التربة بفعل الفرق فى جهد الماء بين محاليل التربة، والعصارات المختزنة فى الأوعية الخشبية للنخلة، وهو مايعرف باسم الضغط الجذرى، ثم تتوالى حركة الماء من الجذور إلى خلايا قشرة الساق حتى يصل إلى الطبقة الداخلية منها، ثم الى الأوعية الخشبية فى قلب جذع النخلة عبر خلايا خاصة لمرور الماء وما به من عناصر ومركبات مذابة توجد فى مواجهة الأوعية الخشبية مباشرة. ويتحكم فى حركة الماء هنا التدرج فى قيمة جهده من خلية إلى أخرى. وقد أعطى الله ـ سبحانه وتعالى ـ للماء من الصفات الطبيعية ما جعله واحداً من أشد السوائل تماسكا وتلاصقا، وأقواها بعد الزئبق على تحقيق ظاهرة التوتر السطحى وذلك بسبب ما وهبه الله ـ تعالى ـ لجزىء الماء من خاصية القطبية الكهربية المزدوجة المميزة له.

وبتعاظم التوتر السطحى للماء تتعاظم قدرته على تسلق جدران الوعاء الذى يتواجد فيه، خاصة إذا كان قطر هذا الوعاء صغيراً، وكلما دق هذا القطر ارتفع فيه الماء بسرعة أشد، ووصل إلى مستويات أعلى، وهذه الخاصية المائية المعروفة باسم «الخاصية الشعرية» تتيح للماء الذى تمتصه جذور النخلة من التربة الوصول إلى قمتها النامية وما حولها من أوراق وزهور وثمار مهما تعاظم ارتفاع تلك القمة،

وذلك بتدبير من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وبذلك يبقى ماء الأرض وما به من عناصر ومركبات مذابة على هيئة متصلة من قاعدة النبات إلى قمته مهما ارتفعت تلك القمة، ويعين على هذا الاتصال المستمر قوة الشد الناتجة عن عملية النتح مهما كانت ضعيفة، وهى عملية يطرد بها النبات الماء الزائد عن حاجته إلى الغلاف الجوى المحيط به على هيئة بخار الماء الذى يخرج من ثغور الأوراق والوريقات على وجه الخصوص. وتتأثر عملية النتح هذه بعدد وحجم وتوزيع الثغور على جسم النبات، وبدرجات الحرارة والرطوبة النسبية فى البيئة المحيطة، وبسرعة الرياح، وبالتركيب الداخلى للأوراق والوريقات، ويساعد عملية النتح فى التخلص من الماء الزائد فى داخل النبات عملية أخرى تسمى عملية الإدماع وتكثر فى النباتات التى تحيا فى المناطق العالية الرطوبة.

وقد شاءت إرادة الخالق المبدع ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعل الأوعية الخشبية فى قلب شجرة النخيل صغيرة الأقطار بشكل ملحوظ مما يساعد على رفع العصارة الغذائية بالخاصية الشعرية إلى قمتها النامية والتى يصل ارتفاعها فى بعض الأحوال إلى أكثر من ثلاثين متراً. وبتضافر كل من الضغوط الجذرية، والخاصية الشعرية، وقوة الشد الناتجة عن عملية النتح، ينشأ فى داخل جذع النخلة قوة شد تصل إلى عشرات الضغوط الجوية وبذلك تعمل على رفع العصارة الغذائية النيئة فى الأوعية الخشبية ضد قوى الجاذبية من أسفل النخلة إلى قمتها مهما بلغ ارتفاع تلك القمة، بينما تهبط العصارة الغذائية الناضجة بعد تكوينها فى الأوراق من قمة النبات إلى جذوره خلال خلايا لحاء الشجرة بفعل الجاذبية الأرضية، فسبحان الذى أعد هذه القوى الهائلة للنخل، خاصة الطوال (الباسقات) منها، وزودها بكل الخلايا، والأنسجة، والأعضاء القادرة على التعامل مع تلك القوى.

الأجزاء الرئيسية للنخلة

نعرف من أجزاء النخلة الرئيسية ما يلى:

أولاً: المجموع الجذرى

يبدأ المجموع الجذرى لنخيل البلح فى التكون بمجرد إنبات النواة (إذا كان التكاثر

يتم بواسطة زرع النواة، وذلك لأن التكاثر يمكن أن يتم بواسطة الفسائل، أو باستخدام تقنيات استزراع الأنسجة، وفى كل هذه الحالات تبدأ النبتة بتكون المجموع الجذرى) ويعرف المجموع الجذرى الخارج من النواة النابتة باسم **المجموع الجذرى الوتدى**، ثم تبدأ هذه الجذور الأولية فى التلاشى بالتدريج لتحل محلها جذور عرضية تنشأ من قاعدة البادرة، وتأخذ هذه الجذور العرضية فى الازدياد حجمًا وعددًا مع زيادة نمو النبتة، وهى جذور ليفية، خالية من الشعيرات الجذرية، وتقوم بامتصاص الماء والغذاء من التربة عن طريق خلايا السطح فى هذه الجذور العرضية. ويتميز النخيل بقدرته الفائقة على سرعة تكوين الجذور وانتشارها فى التربة ـ خاصة التربة الرملية ـ لتعين على تثبيت النخلة فى الأرض وعلى إمكانية انتصابها قائمة لارتفاعات شاهقة.

ثانيًا: المجموع الخضرى ويشمل

(١) **جذع النخلة**: جذع النخلة أسطوانى الشكل، بقطر يتراوح بين ٤٠ سم، ٩٠ سم وارتفاع يتراوح بين أقل من مترين وأكثر من ثلاثين مترًا، وليست له فروع، ومغطى بنوع خاص من الليف، وبنهايات السعف القديم الذى تعرف الواحدة منه باسم «الكربة» وهى تقوى الجذع، وتحميه من عوارض الجو، ومن تعدى الحيوانات، ومن بخر ما به من ماء، وتعينه على الانتصاب قائمًا لعشرات الأمتار فوق سطح الأرض.

(٢) **القمة النامية للنخلة**: وتعرف باسم ـ الجمارة ـ، وتحتوى على البرعم القمى الوحيد الموجود فى رأس النخلة، وتختزن فيه كمية كبيرة من العصارة الغذائية الناضجة، ويقوم هذا البرعم القمى الوحيد بعمليات النمو الرأسى فيؤدى إلى استطالة الجذع، وتكوين الأوراق عليه، وتكوين كل من الزهور والثمار، وبموت هذه القمة النامية تموت النخلة، ولذلك أحاطها الله ـ تعالى ـ بغلاف عازل سميك، مكون من قواعد السعف الملتفة والمتراصة لحمايتها من التغيرات المناخية والجوية. وتنقسم هذه القمة النامية إلى جزء سفلى يخرج منه السعف

والليف ويعرف باسم **قلب الجمارة**، وجزء علوى تخرج منه العذوق «جمع عذق» ويعرف باسم **طلع الجمارة** أو **طلع النخلة**.

وعود العذق «العرجون» أو القنو من النخل هو مابين الشماريخ إلى منبته من النخلة، والعذق هو حامل الشماريخ «جمع شمراخ وشمروخ» وهو العود الرفيع الذى عليه البسر ويسمى أحياناً باسم **العثكال**.

(٣) **أوراق النخل (سعف النخل)**: وهى أوراق مركبة، ريشية الشكل، طويلة جداً إذ يتراوح طولها بين حوالى الثلاثة والستة أمتار تقريبًا، وتنتج النخلة الواحدة بين العشرة والعشرين سعفة فى السنة بدءاً من قمتها النامية (الجمارة)، والورقة لها نصل (عرق وسطى) طويل، مرن، قوى، متين، يزيد عرضه عند اتصاله بالجذع، ويتناقص فى اتجاه طرفه، ويتباين لونه من الأصفر إلى الأحمر القانى إلى البنى، ويحمل هذا النصل الوريقات (الخوص) التى يتراوح عددها بين ١٢٠، ٢٤٠ وريقة (خوصة)، وطولها بين ١٥ سم، ١٠٠ سم، وعرضها بين ١، ٦ سم، هذا بالإضافة إلى عدد من الأشواك فى الجزء السفلى من السعفة. وكل شوكة عبارة عن وريقة متحورة، وقد تتواجد مفردة أو فى مجموعات، وتتصل الوريقة بالمحور الرئيسى للورقة بواسطة انتفاخ عند قاعدة الخوصة. ويوجد لكل ورقة غمد يحيط بالساق، وتنفصل منه المادة الليفية الحمراء إلى البنية التى تحيط بالجذع، وتعمل على زيادة متانته، وقوته، كما تعمل على حمايته وعلى حفظ ما به من سوائل.

ثالثاً: المجموع الزهرى والثمرى للنخلة

تخرج نورة النخلة من إبط الورقة، والنورة عبارة عن **إغريض** مركب ومتفرع إلى عدة أفرع (**شماريخ**)، يحمل كل منها أزهاراً أو تكون الأزهار منغرسة فى الفرع المحمولة عليه، والإغريض عبارة عن سنبلة مركبة تشمل الشماريخ والأزهار. والشماريخ (جمع شمراخ وشمروخ) هى فروع متحورة، لحمية، غليظة، تحمل الأزهار، والأزهار وحيدة الجنس (إما مؤنثة أو مذكرة)، منتظمة، بدون عنق، أى محمولة على الشمراخ مباشرة، وهناك مايقرب من العشرة آلاف زهرة على الطلع

الواحد، ومن هنا كان التعبير القرآنى: لها طلع نضيد (أى منضود). ويحمل النورة محور يصلها برأس جذع النخلة، والأزهار المذكرة بيضاء اللون، مائلة إلى شىء من الصفرة، وتوجد فى فحول النخل، أما الأزهار المؤنثة فهى صفراء اللون، وهى أصغر حجمًا من الأزهار المذكرة، وتوجد على إناث النخل.

وفى الحالتين يتركب الطلع من غلاف جلدى متين يحيط بالأزهار، ويعرف باسم «الجف»، ويعرف مابداخل هذا الغلاف من أزهار وعذوق وشماريخ باسم «الأغاريض»، وتتميز الأغاريض المذكرة بقصر شماريخها، وكثرة عذوقها، وتحمل أزهارًا متلاصقة، أما الأغاريض المؤنثة فتحمل عدداً أقل من الأزهار، تتوزع متباعدة عن بعضها البعض على شماريخ أطول وأدق.

وعند حدوث التلقيح بين فحول النخل وإناثه إما تلقيحًا فطريًا بواسطة كل من الرياح والحشرات، أو تلقيحًا صناعيًا (يدويًا أو آليًا) تتم عملية الإخصاب فتنتج الثمرة من أحد الكرابل الثلاث التى تكون الزهرة المؤنثة، وتضمحل الكربلتان الأخريان وتسقطان على الأرض. ويتكون المجموع الثمرى للنخلة من الطلع (الكفرى)، والعذوق، والشماريخ، والثمار، وثمرة البلح حسلية، بداخلها نواة ذات فلقة واحدة تحتضن جنين النخلة بداخلها، وتحيط به طبقة الإندوسپرم على هيئة سويداء قرنية لحماية الجنين وتغذيته فى فترة الإنبات. وفى حالة عدم تلقيح الزهرة المؤنثة تستمر الكرابل الثلاث فى النمو وتعطى ثمارًا صغيرة بدون نوى، ومجتمعه مع بعضها تحت قمع واحد، وهى ثمار لا قيمة لها من الناحيتين الاقتصادية أو الغذائية.

ويزرع نخيل البلح لثماره التى تؤكل، ولخشبه وجريده وخوصه، وأليافه التى لها من الاستخدامات ما لا يتسع المقام لحصره. فسبحان الذى أنزل من قبل أربعة عشر قرنًا قوله الحق: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾.

ثم يأتى العلم الكسبى بعد أربعة عشر قرنًا ليؤكد لنا روعة القوى التى وضعها الله ـ تعالى ـ فى النخل الطوال كى تمكنها من رفع العصارة الغذائية من التربة إلى قمتها، ويؤكد لنا حقيقة أن هناك مايقرب من العشرة آلاف زهرة على الطلع الواحد

منضودة أى متراكبة بعضها فوق بعض فتأتى الثمار منضودة كذلك، وهى حقائق لم تكن معروفة فى زمن الوحى، ولا لقرون متطاولة من بعده،أبقاها الله ــ تعالى ــ فى محكم كتابه شاهدة لهذا الكتاب الخالد بأنه كلام الله ــ الخالق ــ وشاهدة للنبى الخاتم الذى تلقاه بالنبوة وبالرسالة،فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *